

قراءة في كتاب : تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي (ت 638هـ) في التفسير

تقديم وتحقيق د. محمادي بن عبد السلام الحياطي.

A Critical Reading of the Book: The Tafsīr Heritage of Abū al-Ḥasan al-Ḥarallī al-Marrākushī (d. 638 AH)

الدكتور حسن بلحبيب

جامعة عبد المالك السعدي تطوان-المغرب alhabib.ha@gmail.com

ملخص البحث :

هذا البحث قراءة في كتاب في علوم القرآن الكريم، ألفه الإمام أبي الحسن الحرالي المراكشي (ت 683هـ)، وهو عالم كبير، وكتاباته عالية، وأسلوبه راق قلما تصادف مثله، يشعر القارئ بالدهشة، ومشاركاته في جل العلوم العقلية والنقلية واسعة، عالم اجتمع بابن عربي الحاتمي، فأضافه ابن عربي ثلاثة أيام ثم بعد ذلك قال له : " إما أن تقيم هنا وترحل، وإما أن ترحل وتقيم، لأن زنديقين لا يجتمعان في مكان واحد ". وتأقي أهمية نشر تراث الحرالي من خصوصيته الفكرية والصوفية، ومشاركته المتنوعة في كثير من العلوم والمعارف، ومن كونه معلمة بارزة ودالة على ما وصلت إليه الثقافة المغربية في عصر الموحدين. وتأقي أسبقية نشر تراثه في التفسير أولا من كونه أول مغربي -فيما أعلم - ينشر له كتاب في التفسير من عصر الموحدين، ومن كون التفسير هو الجانب الذي اشتهر به أكثر، ولأن له فيه اجتهادات خاصة، كأنه يؤسس قوانين علم جديد لفهم القرآن الكريم، مثل القوانين التي وضعها أبو الأسود الدؤلي لعلم النحو، والإمام الشافعي لعلم أصول الفقه.

الكلمات المفتاحية: أبو الحسن الحرالي المراكشي، التفسير، علوم القرآن، التراث التفسيري. التفسير الصوفي.

Abstract:

This research is a reading in a book on the sciences of the Holy Quran. The book was written by Alimam Abialhassan Alharaalli Almarraakchi (683H), who is a significant religious scholar with great works. The writer's style is sophisticated and unique to the point that it makes the reader feel awe and his contributions to the mental and copy sciences are huge. He is a religious scholar who met Ibn Alarabi Alhaatimi, who hosted him for three days before telling him: "You either live here and we leave or you leave and we stay because two heretics can't be in one place." Thus, the importance of sharing the knowledge of Alharaali stems from his peculiar mentality and approach to sufism as well as his diverse contributions in many streams of knowledge. Also, the writer in question is a prominent figure that reflects the prestige of Moroccan Culture in the age of the Mohads. Moreover, it is a priority to share his heritage because he is the first moroccan to publish a book in explanation in the age of the Mohads - that we know of- and because explanation is what he was famous for the most since he has many personal interpretations as if he was building new rules for the science of understanding the Holy Quran; similar to the rules that were invented by Alaswad Aldaoli for Syntax and AlImam Alchaafii's science of FiQh Origins.

Keywords : Abū al-Ḥasan al-Ḥarallī. Qur'anic Exegesis (Tafsīr). Qur'anic Studies. Tafsīr Heritage. Sufi Exegesis.

تمهيد :

العلماء في الشهرة ثلاثة، عالم اشتهر أكثر من قدره، وعالم اشتهر على قدر علمه، وعالم ظلمته الشهرة، فلم يذع صيته بين الناس، رغم غزارة علمه، ورسوخ قدمه، والله تعالى في ذلك حكمة، وله في خلقه شؤون. وعن النوع الثالث حديثي، عن الإمام أبي الحسن الحرالي المراكشي (ت 683هـ)، وهو عالم كبير، وكتابات عالية، وأسلوبه راق قلما تصادف مثله، يشعر القارئ بالدهشة، ومشاركاته في جل العلوم العقلية والنقلية واسعة، عالم اجتمع بابن عربي الحاتمي (ت 638 هـ) - سبحان الله نفس سنة وفاة الحرالي - فأضافه ابن عربي ثلاثة أيام ثم بعد ذلك قال له : " إما أن تقيم هنا وترتحل، وإما أن ترتحل ونقيم، لأن زنديقين لا يجتمعان في مكان واحد "، فارتحل الشيخ أبو الحسن إلى حماة⁽¹⁾. وللزندقة هنا معاني عدة، لعل أبسطها كقولنا لمن أعجبنا به في أمر ما : (أنت مسخوط/ أنت كارثة) أي : بارع جدا، وعندما يجعل الشيخ ابن عربي عالمنا الحرالي في نفس مقامه من الزندقة، وابن عربي هو من هو في العلم والتأليف والإبحار، فهذا يعني أن الحرالي هو من هو أيضا.

ولكن لماذا اشتهر أبو بكر بن عربي حتى عرفه العالم عربيه وفرسه وعجمه؟!، ولم يعرف أبو الحسن الحرالي إلا عند بعض الخاصة جدا؟! ولعل الإجابة عن هذا السؤال تتطلب بحثا مستقلا وعميقا عن حياة الإمام الحرالي خاصة، وعن حيوات غيره من العلماء الذين على منواله، وإن كنت أعتقد أن قلة تلاميذ الشيخ الحرالي النجباء الذين لهم اهتمام بالعلم راسخ، ويصبرون على قطع الأميال وتشجيم الفراسخ، هي السبب في كتم الصوت. وكلم لعب التلاميذ عبر التاريخ وظيفة فعالة، سلبا أو إيجابا، في رفع هذا العالم وإشاعة ذكره بين الأنعام، أو الحط من ذاك الشيخ، والإشارة إليه - إذا أشير إليه - بأصابع الإبهام.

وفي محاولة مني لإزالة بعض الغبار عن الشيخ الجليل الحرالي وعن بعض تراثه الزاخر، يأتي هذا البحث، وهو عبارة عن قراءة في كتاب تفسير مهم صدر عام 1418هـ/1997م بعنوان : «تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي (ت 638هـ) في التفسير» ، تقديم وتحقيق الأستاذ الدكتور محمادي بن عبد السلام الخياطي، على نفقة أحد المحسنين جزاه الله خيرا.

وقد قسمت هذا المقال إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة : عرفت في المبحث الأول بالشيخ الحرالي، وجعلت المبحث الثاني للحديث عن الكتاب موضوع المقال، في حين جعلت المبحث الثالث للحديث عن أهم ميزات تفسير الحرالي رحمه الله تعالى وحشره في زمرة العلماء العاملين. آمين.

مقدمة :

يمكن القول بأن المدرسة المغربية في التفسير ظهرت في العصر الموحدي، وظهرها وإن جاء متأخرا، إلا أنها جاءت ناضجة، استوعبت مدارس التفسير الإسلامي قبلها، وضمت اتجاهات المفسرين، واستطاعت أن تجد في طريقة التفسير، وأن تبتكر منهجا جديدا، وتكون لنفسها طابعا مستقلا، يجمع بين المدرسة التقليدية - التفسير بالمأثور - وبين المدرسة العقلية - التفسير بالرأي المقبول - المعتمدة على سائر العلوم لفهم النصوص القرآنية في معانيها العميقة.

ومن أوائل العلماء المغاربة الذين وصل إلينا البعض من تفسيرهم للقرآن الكريم هو العلامة الشيخ المشارك أبو الحسن الحرالي المراكشي المتوفى سنة 638هـ الذي يعتبر من العلماء المشاركين في علوم متنوعة، كالمنطق وعلم الكلام والرياضيات، فقد ألف في المنطق، وكان يقرأ كتاب النجاة لابن سينا، وله وضع على كتاب سيويه سماه النافع، وكان عارفا بالحديث والفقه والأصول، وله شرح على الموطأ، وكان يُدَرِّس التهذيب للبراذعي فيبين أنه مخالف لما في المدونة في كثير من مواضعه، وألف في الفرائض كتابا سماه الوافي نوه به من وقف عليه، وله كتاب مميز في علم أسرار الحروف وإن كان ابن خلدون ذكر ابن عربي والبوني ولم يشر للحرالي في هذا الشأن⁽²⁾، أما التصوف والتفسير، فله فيهما تأليف كثيرة وتصانيف متنوعة، وبالجملة فقد كان في معارفه وعلومه بحرا خضما وآية من آيات الله، وقد أطل الغريبي في ذكر محاسنه⁽³⁾.

وعلى الرغم من الباع الكبير للشيخ الحرالي في سعة العلم وكثرة التأليف إلا أنه ظل غير مشهور، وبقيت جل كتبه مخطوطة، إلى أن سخر الله تعالى أخيرا لهذا الإمام الجليل دارسا عارفا هو السيد الأستاذ الدكتور محمادي الخياطي فأُنجز فيه وفي التعريف به رسالة عنوانها : أبو الحسن الحرالي : آثاره ومنهجه في التفسير.

ثم إنه تابع البحث فيه وواصل تجميع تراثه من مكنتات الشرق والغرب، وعزم على نشر هذا التراث في سلسلة تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي، ويمثل تراث أبي الحسن في التفسير الحلقة الأولى من هذا التراث الذي نسأل الله تعالى إكمال إخراجه لعالم الطباعة والنشر، حتى تعم الفائدة ويتسنى للباحثين معرفة المزيد من الجوانب العلمية والفكرية والفلسفية لهذا العالم الجليل.

واشتمل كتاب : تراث أبي الحسن الحرالي في التفسير على أمرين اثنين هما :

- الجانب النظري وضم ثلاث رسائل تتصل بقواعد التفسير وأصوله على حد رأي أبي الحسن واجتهاده، وهي : مفتاح الباب المقفل، عروة المفتاح، والتوشية والتوفية.

- القسم التطبيقي واشتمل على نصوص من تفسير الحرالي استخرجها المحقق من تفسير البقاعي المسمى بنظم الدرر في تناسب الآيات والسور. ويتميز تفسير الحرالي بأن مؤلفه ملأه بحقائقه ونتائج فكره

كما يقول الإمام شمس الدين الذهبي⁽⁴⁾، وقد اختلف العلماء في تفسير أبي الحسن، فقد مجده بعضهم مثل مجد الدين التونسي وشرف الدين بن البارزي⁽⁵⁾، وأفاد المناوي منه كثيرا في كتابه التوقيف على مهمات التعاريف، ونقل عددا كبيرا من تعاريفه⁽⁶⁾، في حين رفضه بعضهم كالعز بن عبد السلام الذي لم يعجبه تفسير الحرالي، ولما وقف عليه قال : أين قول مجاهد؟ أين قول قتادة؟ أين قول ابن عباس؟ وأكثر القول في هذا المعنى ثم قال : يخرج من بلادنا، ولما بلغ كلامه الشيخ رضي الله عنه وأمره بما أمر به قال : هو يخرج ويقوم عبد الله فكان كذلك⁽⁷⁾.

وقد بذل الأستاذ الخياطي حفظه الله تعالى وجزاه خيرا، جهدا مشهودا في تجميع النسخ ومقابلتها وتحقيقها وتخرج ما يحتاج إلى تخرج من نصوصها، مما جعل كتاب : «تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي في التفسير» يخرج في صورة علمية أكاديمية رصينة. وقبل الشروع في الحديث عن هذا الكتاب القيم، لا بد لنا من وقفة تعريفية بالشيخ الحرالي رحمه الله تعالى عليه وعلى سائر علمائنا الكرام.

المبحث الأول : التعريف بالإمام الحرالي :

هو أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسين بن إبراهيم بن محمد التجيبي - بضم التاء وفتحها - نسبة إلى تجيب بنت ثوبان بن سليم، جدة التجيبيين العليا، الحرالي المغربي المراكشي. وأول ما يستوقفنا في هذا الاسم هو هذه النسبة الحرالي - بمهملتين مفتوحتين ومد وتشديد اللام - وإن كان البعض قد ضبطها بتشديد الراء وتخفيف اللام، ولكن ما أثبتناه هو الصحيح، وهو الذي ظل مسموعا في المغرب إلى عهد ابن الطيب الشركي الصميلي محشي القاموس وشيخ مرتضى الزبيدي.

والحرالي بهذا الضبط نسبة إلى حرالة وهي كما يقول ابن الأبار قرية قريبة من مرسية⁽⁸⁾، وسماها ابن سعيد مدينة فقال : "كتاب الأشهر المهلة في حلى مدينة الحرلة"⁽⁹⁾. ومعنى هذه الكلمة التي لم يشر إليه أصحاب كتب التراجم هو الحارة الصغيرة، وذلك أن حرالة مركبة من كلمة حارة وكلمة Ela وهي علامة التصغير في الإسبانية⁽¹⁰⁾.

وقد انتقلت الأسرة التجيبية العربية إلى الأندلس، أيام فتح المسلمين لها، وكان أول من دخل منهم إلى الأندلس رجل يقال له عمير بن المهاجر دخل مع جيش موسى بن نصير، ولا شك أن أسرة الحرالي من الأسر التجيبية التي انتقلت إلى المغرب إما في عهد المرابطين، وإما في عهد الموحدين، ونرجح أن يكون ذلك الانتقال في عهد الموحدين، لأنه بقي للحرالي أقارب بالأندلس، تتحدث عنهم رسالته إلى حاكم وقسيس طركونة. وعلى هذا فالحرالي مغربي مراكشي نشأة ودراسة وفكرا وثقافة، بشهادة معاصره ابن الأبار الذي صرح أن الحرالي ولد بمراكش، وبها نشأ.

وتلقى علومه عن أشهر علماء المغرب في عصره، أمثال : ابن الكتاني الفندلاوي وأبي الحجاج يوسف بن النموي وأبي الحسن بن القطان، كما تعلم على أشهر علماء الأندلس الذين كانوا يترددون على المغرب، وما أكثرهم في ذلك العصر أمثال : ابن خروف وأبي ذر الحشني.

وعن حياته العلمية يذكر ابن الطواح أنه كان كاتباً للمنصور الموحيدي. وكان من ظرفاء وأدباء أهل عصره، وكان حاله يطرز به أنفاس المجالس.

إلا أن هذه الحالة لم تدم، إذ تخلّى عن الدنيا حسب الغبريني واتجه نحو المشرق، وأثناء رحلته هذه كان ينشر العلوم والمعارف، فاستقر بمدينة طرابلس الغرب مدة⁽¹¹⁾، وفي ذلك يقول ابن الطواح : " وأخبرني بعض الأصحاب الموثوق بهم من العارفين السالكين أن ابن أبي الدنيا الفقيه الطرابلسي، قرأ عليه الأصلين والعربية والآداب، وكان يثني عليه كثيراً"⁽¹²⁾.

وانتقل بعد ذلك إلى مصر، ولقي هناك جماعة من العلماء، على رأسهم الفخر الرازي، ويلخص ابن الأبار مقام الشيخ الحرالي بالمشرق قائلاً : " لقي هناك جماعة من العلماء وناظر عندهم فبرع"⁽¹³⁾.

وبعد أداء فريضة الحج جاور المدينة المنورة، وبها أخذ عن عالمها وإمامها أبي عبد الله القرطبي(ت)، 631هـ) الذي يصفه الحرالي في مقدمة رسالته مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل بأنه كان يتتبع علم التفسير والتأويل حتى فتح الله عليه، فأخذ يتطرق إلى فهم القرآن بعد أن زكاه الله بالزهد بعد أن قام على باب الله عشرين عاماً. وعلى نهجه سار الحرالي في كتابه مفتاح الباب المقفل⁽¹⁴⁾.

وعاد الحرالي من المشرق واستقر بمدينة بجاية، ويتحدث الغبريني عن هذه الرحلة من حياته بنوع من التفصيل والإعجاب، ويذكر تلاميذه الذين تخرجوا على يده علماء وأدباء وشعراء، وبعضهم كان شيخاً للغبريني، كما يذكر العلوم التي كان يدرسها هناك، والعلوم التي كان يتقنها، ويورد بعض مؤلفاته⁽¹⁵⁾.

وتعتبر إقامة الإمام الحرالي في بجاية أهم مرحلة من حياته سلطت عليها الأضواء، إلا أنها انتهت بإخراج الحرالي من بجاية في قصة مثيرة، انفرد بذكرها ابن الطواح.

فعاد الحرالي مرة ثانية إلى المشرق، وانتهى به المطاف هذه المرة ببلاد حماة من بلاد الشام، واستقر فيها إلى أن وافته المنية سنة 638هـ رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

من أهم تلاميذه الذين أخذوا عنه: - عبد الحق بن ربيع الأنصاري - أبو محمد بن مخلوف - أبو عبد الله محمد بن الحسن بن ميمون التميمي القلعي - أبو زكرياء يحيى بن محجوبة السطيفي - أبو محمد عبد المنعم بن محمد بن عتيق الغساني - أبو عبد الله القصري.

مؤلفاته :

شارك الإمام الحوالي في كثير من العلوم، حيث بلغ مجموع ما نسبته له مصادر ترجمته تسعة عشر كتاباً، اثنان منهما كشف البحث أنهما منتحلان عليه. إضافة إلى بعض القصائد والمقطوعات الشعرية التي نسبتها له تلك المصادر. والآثار المتوفرة الآن هي⁽¹⁶⁾ :

- الإيمان التام بمحمد عليه السلام.
- فتيا صلاح العمل لانتظار الأجل.
- رسالة نصح عام لمن قال ربي الله ثم استقام.
- اللوحة بمعرفة الحروف بمقتضى معانيها.
- تفهيم معاني الحروف.
- سعد الواعي وأنس القاري.
- حكم : أقوال حكمية.
- مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل.
- عروة المفتاح.
- التوشية والتوفية للمفتاح.

هذا إضافة إلى نصوص من تفسيره المفقود مستخرجة من كتاب نظم الدرر في تناسب الآيات والسور⁽¹⁷⁾.

المبحث الثاني : كتاب «تراث أبي الحسن الحوالي المراكشي (ت 638هـ) في التفسير» .

أولاً : أهمية الكتاب :

يخبرنا المحقق الأستاذ الحياطي عن أهمية الكتاب قائلاً في مقدمته : "...وتأتي أهمية نشر تراث الحوالي من خصوصيته الفكرية والصوفية، ومشاركته المتنوعة في كثير من العلوم والمعارف، ومن كونه معلمة بارزة ودالة على ما وصلت إليه الثقافة المغربية في عصر الموحدين. وتأتي أسبقية نشر تراثه في التفسير أولاً من كونه أول مغربي — فيما أعلم — ينشر له كتاب في التفسير من عصر الموحدين، ومن كون التفسير هو الجانب الذي اشتهر به أكثر، ولأن له فيه اجتهادات خاصة، جعلته يشعر القارئ أنه يؤسس، أو يضع قوانين علم جديد لفهم القرآن الكريم، مثل القوانين التي وضعها أبو الأسود الدؤلي لعلم النحو، والإمام الشافعي لعلم أصول الفقه " ⁽¹⁸⁾.

ثانيا : محتويات الكتاب :

بدأ المحقق الأستاذ محمادي بن عبد السلام الخياطي كتاب : « تراث أبي الحسن الحرالي في التفسير بعد الإهداء بتصدير مُرَكِّزٍ جامع للأستاذ الدكتور محمد بن شريفة عضو أكاديمية المملكة، بين فيه القيمة العلمية للشيخ الحرالي مع ذكر أهم العلوم التي نبغ فيها، وأشاد بمؤلفاته الغزيرة وخصوصا تراثه في التفسير، كما أثنى على المحقق الأستاذ الخياطي حامدا جهده الطيب في خدمة هذا التراث المبارك.

ثم وضع مقدمة للكتاب، ذكر فيها صلته الأولى بالشيخ الحرالي، مبرزا الأهمية التي يكتسبها هذا المؤلف المتجلاة خصوصا في كونه أول تفسير مغربي ينشر من زمن الموحدين. ثم عرف بالمؤلف الحرالي تعريفا مختصرا، مشيرا إلى دراسته الوافية عن الشيخ الحرالي لمن أراد التوسع والتي أسماها : أبو الحسن الحرالي : آثاره ومنهجه في التفسير.

ثم انتقل المحقق إلى وصف المخطوطات وعمله في التحقيق، وهنا أكد على أن الكتاب اشتمل على ثلاثة رسائل مخطوطة، وعلى نصوص من تفسير الشيخ الحرالي نقلها الأستاذ الخياطي من : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي.

ثالثا : أهم مضامين الكتاب :

جاء الكتاب مقسما إلى قسمين كبيرين كما أسلفت، أحدهما نظري، وثانيهما تطبيقي.

أ - القسم النظري : ضم القسم النظري ثلاث رسائل، هي كالآتي :

1 - مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل : حيث ذكر في مقدمته أن ما سيكتبه هو قوانين تختص بالتطرق إلى تفهم القرآن، وقد جعله في عشرة أبواب، شرح في كل باب قانونا من تلك القوانين، يفرق الحرالي في هذه الرسالة بين التفسير الذي قوانينه علم النحو والأدب، وهو ما بدا منه في يوم الدنيا، والتأويل الذي قوانينه علم الإيمان، وهو ما يبدو من القرآن في يوم الآخرة، والفهم لما عليه القرآن دائما، حيث لا ليل ولا نهار. ويعتبر الحرالي الفهم شأنًا قلبياً اختص الله به بعض عباده، ويسجل في رسالته ما يعتبره قوانين لهذا الفهم، فيتحدث في الباب الأول عن "علو بيان القرآن على بيان الإنسان"؛ إذ بيان الله مرتبط بإحاطة علمه ويخبر بالحق والواقع، وفي الباب الثاني عن "جمع القرآن لنبأى الإفصاح والإفهام"؛ ففيه الإجمال والتفصيل، والإفصاح والإفهام، "فمتى أنبأ عنه تعالى أخذ الفاهم مقابل ما يتلو إفصاحاً في قلبه عن العبد مفهوماً، فيملاً القرآن قلبه بإفهامه، ويملاً سمعه بإفصاحه"⁽¹⁹⁾، ويتحدث في الباب الثالث عن "إبانة القرآن عن أسنة ذوات الخلق، وعن تنزلات أسماء الحق"؛ فالقرآن ينطق عن ذوات الخلق، ولكل اسم من أسماء الله بيان يخص إقامته

طوراً من أطوار خلقه تفصيلاً وإجمالاً، ويتحدث في الباب الرابع عن "رتب البيان عن تطور الإنسان بترقيه في درج الإيمان وترديه في درك الكفران" ويذكر أن أوردى أحوال المستخلف المحل الذي يسمى فيه بالإنسان، وهو حيث أنس بنفسه وغيره، ونسي عهد ربه، فيرد لذلك نبؤه بالذم في القرآن، ثم مرتبة الناس ويذم فيها أكثرهم، ثم مرتبة القبول والسماع" الذين آمنوا"، ثم المرتبة الأقرب" المؤمنون "ثم المؤمنون حقاً، ثم المحسنون، ثم الموقنون⁽²⁰⁾. وفي الباب الخامس يتحدث عن "تنزلات خطاب القرآن بحسب أسماء الله"؛ فيرى أن فهم الآيات يرتبط بما ورد فيها أو بما ختمت به من أسماء الله، ويتحدث الباب السادس عن "وجه بيان القرآن في تكرار الإظهار والإضمار"، فإذا تقدم الإظهار فهو خطاب المؤمنين بآيات الآفاق، وإذا تقدم الإضمار فهو خطاب الموقنين بآيات الأنفس، وإذا كان الكلام عن إحاطة تقدم الإضمار، وإذا كان الكلام عن اختصاص تقدم الإظهار، ويتحدث في الباب السابع عن "رتب البيان في إضافة الربوبية ونعت الإلهية في القرآن"؛ فبحسب إضافة اسم الرب تختلف رتبة البيان، أما الباب الثامن فيتحدث فيه عن "وجه بيان الإقبال والإعراض في القرآن"؛ فيتفاوت الخطابان بحسب تفاوت مخاطبين، ويتناول في الباب التاسع "وجه إضافات الآيات واتساق الأحوال لأسنان القلوب في القرآن"، ويقصد بأسنان القلوب أعماراً معنوية تتدرج على مراتب تبدأ بالإنسان وتكتمل باليقين في سبع مراتب، ويجعل من مفاتيح البيان فهم المخاطب في الآيات بحسب هذه المراتب، ويأتي الوصف بحسب الاستجابة وأحوالها سلباً أو إيجاباً. ويختتم الرسالة بالباب العاشر "في محل أم القرآن من القرآن، ووجه محتوى القرآن على جميع الكتب والصحف المتضمنة لجميع الأديان، وما حواه من وجوه البيان"، ويفصل في هذا الباب مكانة القرآن من الكتب السابقة، ومكانة أم القرآن من القرآن.

2 - العروة للمفتاح الفاتح للباب المقفل المفهم للقرآن المنزل : الرسالة الثانية للحارلي في قوانين فهم القرآن هي "العروة للمفتاح الفاتح للباب المقفل المفهم للقرآن المنزل" ويتحدث فيها عن الأحرف السبعة من حيث شرط علمها وحالها وبيانها، أما بيانها -موضوع الباب الأول من الرسالة -، فهما حرفا صلاح الدنيا (الحرام والحلال)، وأصل هذين الحرفين التوراة وتامهما في القرآن، وحرفا صلاح المعاد (الزجر والأمر)، وأصل هذين الحرفين في الإنجيل وتامهما في القرآن، وحرفا صلاح الدين (الحكم والمتشابه)، وأصل هذين الحرفين في الكتب المتقدمة كلها وتامهما في القرآن، وهذه الحروف الستة تشترك فيها الكتب المتقدمة ويزيد القرآن عليها بإتمامها وبركة جمعها. ويختص القرآن بالحرف الجامع (المثل الأعلى) أو الحمد الخاص بمحمد صلى الله عليه وسلم؛ لذلك افتتح الله به أم القرآن، وجمع فيها جوامع الحروف السبعة التي بثها في القرآن، كما جمع القرآن ما بث في جميع الكتب المتقدمة⁽²¹⁾، ثم يشرح في سبعة فصول هذه الحروف وخصائصها ومن تتوجه إليه. أما الباب الثاني من الرسالة في شرط منال هذه الحروف وعلمها والعمل بها "فيخص فيه كل حرف بفصل مستقل يتحدث فيه عما تحصل به قراءة الحرف في العلم والحال.

فحرف الحرام تحصل به طهارة البدن، وتحصل قراءة هذا الحرف بالورع الحاجز عما يضر بالجسم ويؤذي النفس وما يكره الخلق وما يغضب الرب.

أما حرف الحلال فتأتي قراءته من جهة القلب بمعرفة حكمة الله في المتناول من مخلوقاته، ومعرفة أخص منافعها مما خلقه، ومن جهة النفس بسخائها بما يقع فيه الاشتراك من المنتفعات المحللات وصبرها عما تشتت به من المضرات، والتراضي وطيب النفس فيما يقع فيه الاشتراك، ومن جهة العمل بالأدب.

وكما كان حرف الحلال موسع ليحصل به الشكر، فحرف النهي مضيق لمتسع حرف الحلال؛ ليحصل به الصبر،⁽²²⁾ وتحصل قراءته من جهة القلب بمشاهدة البصيرة لوعود الجزاء، ومن جهة النفس بصبرها عن الشهوات، ومن جهة العمل بكف اليد عن الانبساط في التمول فيما به القوام. وتحصل قراءة حرف الأمر من جهة القلب بالتوحيد والإخلاص، ومن جهة النفس بالطمأنينة بالله، ومن جهة العمل بأدب الجوارح.

وتحصل قراءة حرف المحكم بتحقيق العبودية في القلب، وذل النفس وانكسار الجوارح. وتحصل قراءة حرف المتشابه بمعرفة القلب بالعجز عن معرفة جميع أسماء الحق وأوصافه، وباستكانة النفس لما يوجبها تعرف الحق بتلك الأسماء والأوصاف، وليس لعمل الجوارح في هذا الحرف مظهر سوى حفظ اللسان عن ألفاظ التمثيل والتشبيه.

وأما قراءة حرف الأمثال فهو وفاء العباد بالقلب جمعاً ودواماً، ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾⁽²³⁾، ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾⁽²⁴⁾، فالذي تحصل به قراءة هذا الحرف، إنما هو خاص بالقلب، لأن أعمال الجوارح وأحوال النفس قد استوفتها الأحرف الستة التفصيلية⁽²⁵⁾.

3 - التوشية والتوفية : سمي الحرالي رسالته الثالثة "التوشية والتوفية"؛ لما تقدم إثباته من كتاب العروة ومفتاحها، ففصل التوشية تحدث فيه عن "تفاوت وجه الخطاب فيما بين ما أنزل على وفق الوصية، أو أنزل على حكم الكتاب" فما أنزل على وفق الوصية خاص بالقرآن الخاص بمحمد صلى الله عليه وسلم، وتتعاقد فيه الوصية والكتاب، أما الثاني فهو ما أنزل على حكم العدل والحق المتقدم فضله في سنن الأولين، وكتب المتقدمين.

أما فصل التوفية فيشتمل على "تناول كلية القرآن لكلية الأمة"، بمعنى أن ما ورد من أخبار وقصص السابقين وأهل الأديان في القرآن "إنما مقصوده الاعتبار والتنبية بمشاهد متكررة في هذه الأمة، من نظائر جميع أولئك الأعداد وتلك الأحوال والآثار، حتى يسمع السامع جميع القرآن من أوله إلى خاتمته منطبقاً على هذه الأمة وأئمتها، هداً وضلالها، فحينئذ يفتح له باب الفهم⁽²⁶⁾، ويتابع في هذا السياق وقوع الأديان التي ذمها القرآن في هذه الأمة ومظاهر ذلك.

ونلمس من هذا التحليل المنزع الأخلاقي والعملية الذي يسعى إلى تجليته من خلال هذه القوانين التي يؤسسها في فهم القرآن، "فمن حق القارئ أن يعتبر القرآن في نفسه، ويلحظ مواقع مذامه للفرق، ويزن به

أحوال نفسه من هذه الأديان، لئلا يكون ممن يسب نفسه بالقرآن وهو لا يشعر⁽²⁷⁾، ويقول "أفضل الناس مؤمن في خلق حسن، وشر الناس كافر في خلق سيء"⁽²⁸⁾.

أخيراً.. وبعد استعراض مضامين رسائل الحرائلي الثلاث التي تناولت أصول فهم القرآن، يمكن أن نلاحظ أن المنزع الصوفي لدى الحرائلي لا يبدو بذاته هو المحرك لرسائله بقدر ما هو البعد العلمي في تأطير الفهم العملي للقرآن الذي يستل منه ما يخص سلوك الإنسان وعلاقته بالقرآن والتاريخ، فلئن كان التفسير الإشاري⁽²⁹⁾، قد وقع في إشكال القطيعة مع لغة النص والسياق، والتفسير قد أسر بقوانين اللغة والنحو، والتأويل قد استلب إلى علم الكلام والمتشابهات، فإن الحرائلي يحاول في هذه الرسائل أن يقن "فهم القرآن" كطريق للتعامل مع النص لا يتجاوز التفسير ولا التأويل إنما يلج إلى اللب والمقصد والجوهر المتعلق بالإنسان وترقيه في السلوك والأخلاق.

ولعل ما كتبه الحرائلي يمثل خطأ مجهولاً في الدرس القرآني، وتنبع أهميته من البعد التأسيسي ومحاولة التعيد لنمط من الفهم الذوقي العميق للقرآن، فهماً يتجاوز التقول الباطني والشطح الصوفي، ولا يكون أسيراً للتفسير الظاهري، والمنطلق الذي أعان الحرائلي في تأطير رؤيته هو الرؤية الكلية للقرآن، لا في ذاته فقط إنما في سياق علاقته التاريخية مع الكتب والأديان، وفي ضوء الصلة بين الله والإنسان.

ورغم أن هذه الرسائل قد صدرت منذ أكثر من عقد إلا أنها لم تنتشر بين الدارسين بما يعطيها حقها ومكانتها التأسيسية والإبداعية في أصول التفسير، ولعل هذا التعريف بما يفتح أفقاً لتتبع ما فيها من أصول وقواعد يمكن أن تثري الدرس القرآني المعاصر، ولعل ما جمع من تفسيره يسهم في تعميق هذه الرؤى وتوضيحها.

ب - القسم التطبيقي :

اشتمل القسم الثاني من كتاب : تراث أبي الحسن الحرائلي المراكشي في التفسير، -وهو أكثر الكتاب حيث يبدأ من ص.144 إلى آخر الكتاب ص.594- على نماذج من تفسيرات الحرائلي، أخذها المحقق الأستاذ الخياطي من الأجزاء الأربعة الأولى من تفسير الإمام برهان الدين البقاعي (ت 885هـ) المسمى : « نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ». واعتمد الأستاذ الخياطي على طبعة دائرة المعارف العثمانية بالهند، في طبعتها الأولى لمتاب نظم الدرر عام 1391هـ/1971م.

وقسم المحقق الأستاذ محمادي الخياطي الجانب العملي التطبيقي من الكتاب إلى أربعة أقسام :

✓ نصوص تفسير الحرائلي المفقود المستخرجة من الجزء الأول من تفسير البقاعي « نظم الدرر ».

ويبدأ من بداية سورة الفاتحة المباركة، إلى الآية 81 من سورة البقرة المعظمة وبالضبط إلى كلمة بلى من قوله تعالى : ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾⁽³⁰⁾.

✓ نصوص تفسير الحرائلي المفقود المستخرجة من الجزء الثاني من تفسير البقاعي « نظم الدرر ». ويبدأ بقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية 83 من سورة البقرة، وينتهي بقوله تعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ الآية 175 من سورة البقرة.

✓ يبدأ من الآية 176 من سورة البقرة وبالضبط من قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ﴾ وختامه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ﴾ من الآية 251 من سورة البقرة.

✓ يبدأ القسم الرابع من نصوص الحرائلي في التفسير من الآية 253 من سورة البقرة ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ من الآية 62 من سورة آل عمران.

المبحث الثالث : ميزات تفسير الإمام الحرائلي :

أ - فهم القرآن هبة ربانية تكتسب بحسن الإقبال والتقوى :

أكد الإمام الحرائلي خلال رسائله النظرية في قواعد تفسير القرآن الكريم على صعوبة فهم الكلمة القرآنية ومحاولة تبينها وتبينها، إذ لا يكفي في ذلك مجرد التفسير والتأويل فقط، لأن فهم كلمات القرآن الكريم وتراكيبه مطلب سام، بعيد غوره، قصي نجمه، لا بد فيه من مجاهدة النفس وتطهيرها من الظنون والأهواء، إذ الفهم في اصطلاح الإمام الحرائلي رحمه الله تعالى هو : "الأخذ من إفادة الخطاب من غير حاجة إلى سابق فسر ولا نظر إلى متقدم علم سابق، فيأخذ الفاهم من القرآن ما أعطاه القرآن لسماعه إياه" (31)، ولذلك كان لابد "في قراءة القرآن من تجديد إقبال، وتحيي لقبول وتحقيق تقوى؛ لأنه إنما هو هدى للمؤمنين... فلا يقرأ القرآن من لم يقبل عليه بكلية ظاهره، ويجمع اهتمامه له بكلية باطنه" (32). ويبقى الأمر بعد ذلك لدنيا "ليس مما في فطر الخلق وجبلاتهم وإقامتهم حكمتهم، وإنما هو موهبة من الله سبحانه وتعالى بحسب العناية" (33). فعلى قدر عناية القارئ وإقباله وتركيزه نفسه يفتح الله له أبواب الفهم والإدراك والتدبر في كتابه العظيم. ولذلك يجعل الإمام الحرائلي أول شرائط الفهم التزكية تطهرا وتحققا وتحلقا، فبقدر ما تزكو النفس بقدر ما ينقشع ما تراكم على فطرتها من مفسد وما انطبع فيها من صور الأكوان، حتى تصفو صفاء يجعلها تقرأ بنور العقل آيات الآفاق والأنفس وآيات القرآن العظيم.

ب - الرجوع بالكلمة - أحيانا - إلى أصل وضعها اللغوي للخروج من الإشكال :

كان الإمام الحرائلي رحمه الله تعالى يرجع بالكلمة القرآنية إلى أصلها في اللغة، واضحا بذلك الحد ملل يمكن أن يطال بعض أحكام القرآن الكريم من إشكال في الفهم للقاصرين في علوم اللغة العربية، ومن أمثلة ذلك ما قاله في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (34)، حيث فسر (وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ) بقوله : " لأذاه للنفس، كما حرم ما قبله لمضرتهما بالجسم، لأن من حكمة الله في خلقه أن من اغتذى جسمه بجسمانية

شيء اغتذت نفسه بنفسانية ذلك الشيء : - الكبر والخيلاء في الفدادين أهل الوبر، والسكينة في أهل الغنم - فلما جعل في الخنزير من الأوصاف الذميمة حرم على من حووظ على نفسه من ذميم الأخلاق، واللحم ما لحم بين أخفى ما في الحيوان من وسط عظمه، وما انتهى إليه ظاهره من سطح جلده، وعرف غلبة استعماله على رطبه الأحمر، وهو هنا على أصله في اللغة، يجمع اللحم الأحمر والشحم والأعصاب والعروق إلى حد الجلد، وما اشتمل عليه ما بين الطرفين، من أجزاء الرطوبات... " (35).

ت - التسليم بعلو بيان القرآن على بيان الإنسان :

ينطلق الإمام الحارلي في تفسيره للقرآن الكريم من مسلمة لا مناص منها لكل ذي لب، وهو علو بيان القرآن على بيان الإنسان، لأن : " بلاغة البيان تعلو إلى علو قدر المبين، فعلو بيان الله على بيان خلقه، بقدر علو الله على خلقه " (36)، وقد ثبت التقصير في بيان الخلق " وبلغ إلى غاية البلاغة بيان القرآن عن كل ناطقة بأيما لسان " (37). ومن هنا لا يجوز اعتبار لغة القرآن بلغة الإنسان. بعبارة أخرى لا يمكن الإحاطة بلغة القرآن إحاطتنا بلغة الإنسان؛ إذ قواعد العلوم تمنح إمكان هذه الإحاطة. ولكن ليس لهذه القواعد مزية بيان خبيثات معاني القرآن، وذلك لقصورها عن الإحاطة بخطاب القرآن " فإن للقرآن علوا من الخطاب يعلو على قوانين العلوم علو كلام الله على كلام خلقه " (38).

وتلك مسلمة لم تدعن لها عقول بعض المعاصرين، فراحوا يتعاملون مع نص القرآن كما لو أنهم يتعاملون مع نص بشري، وقصدهم من ذلك، كما هو بين من طروحاتهم، نزع قداسة النص الكريم وتعالیه.

ث - ألفاظ القرآن الكريم لها إفصاح (ظاهر) وإفهام (باطن) :

واضح أن الإفصاح والإفهام في اصطلاح الحارلي يقابلهما الظاهر (العبارة) والباطن (الإشارة)، كما يفهمهما المفسرون الصوفيون المعتدلون من أهل السنة، على اعتبار أن " الظاهر هو ظاهر التلاوة، والباطن هو الفهم عن الله لمراده، لأن الله تعالى قال: (فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا) (39) ، والمعنى لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب، ولم يرد أنهم لا يفهمون نفس الكلام، كيف وهو منزل بلسانهم؟ ولكن لم يحظوا بفهم مراد الله من الكلام، وكأن هذا هو معنى ما روي عن علي كرم الله وجهه أنه سئل هل عندكم كتاب؟ فقال: لا، إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة " (40).

منهج الحارلي في تفسيره لآيات القرآن الكريم كلي يجمع بين نبأ الإفصاح والإفهام، لا يميز الإفهام من الإفصاح. " فما يقع فيه الإفهام في متقابلات ظاهرة يقع البيان عن أحدها إفصاحا ويلازمه الآخر إفهاما " (41)، ففي الآية الكريمة (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (42)، يذكر الحرالي أن " القرآن أفرد القيام، فاندرج من ذكر من الملائكة وأولي العلم في هذا القيام إفهاماً، كما اندرجوا في الشهادة إفصاحاً، فكان في إشعاره أن الملائكة وأولي العلم لا يقاد منهم فيما يجريه الله سبحانه وتعالى على أيديهم، لأن أمرهم قائم بالقسط من الله " (43).

وفي الآية الكريمة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ هُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ (44)، يبين الحرالي أن ختم الآية بقوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ فأظهر وصف العزة موصولاً بما أدام من انتقامه، بما تعرب عنه كلمة (ذو) المفصحة بمعنى صحبة ودوام. فكأن في إشعاره دواماً لهذا الانتقام بدوام أمر الكتاب الجامع المقابل علوه لدنو هذا الكفر، وكان في طي إظهار الانتقام أحد قسمي إقامة القيومية في طرفي النعمة والرحمة، فتقابل هذان الخطابان إفصاحاً وإفهاماً، من حيث ذكر تفصيل الكتب إفصاحاً، فأفهم جزاءها بالرحمة إلاحة من حيث ذكر جزاء الكفر إفصاحاً، فأفهم منزل الفتنة في الابتداء إلاحة، فإنه كما أنزل الكتب هدى، أنزل متشابهها فتنة، فتعادل الإفصاحان والإلاحتان، وتم بذلك أمر الدين في هذه السورة (45).

ج _ تفسير الحرالي يقوم على المناسبة بين حروف القرآن وألفاظه وآياته وسوره :

يقول الإمام المناوي في الكواكب الدرية في ترجمة الإمام الحرالي : "وصنف تفسيراً ملأه بحقائقه، ودقائق فكره، ونتائج قريحته، وأبدى فيه من مناسبات الآيات والسور ما يبهّر العقول، وتحار فيه الفحول..." (46).

كان مذهب الشيخ الحرالي في تفسيره أن خطاب القرآن نسق لغوي كلي. يشير بصدد تفسير قوله جل وعز: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (47) إلى أن القرآن أعقب استكبارهم اللعن، كما كان في حق إبليس مع آدم -عليه السلام- فانتظم صدر هذه السورة إظهار الشيطنتين من الجن والإنس الذي انختم به القرآن في قوله: (مَنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) (48) ليتصل طرفاه فيكون ختماً لا أول له ولا آخر، والفتحة محيطة به، لا يقال هي أوله ولا آخره. ولذلك ختم بعض القراء (49) بوصله حتى لا يتبين له طرف، كما قالت العربية، لما سئلت عن بنيتها: هم كالحلقة المفرغة، لا يدرى أين طرفها (50).

القرآن الكريم في آياته وخطاباته متصل طرفاه، ترتيبه حرف حرف ولفظ لفظ وآية آية وسورة سورة معجز، أو بعبارة الحرالي وغيره من المفسرين والبلاغيين "نظم القرآن، على ما هو عليه، معجز" (51).

وقد يستبعد بعض ممن يقرؤون القرآن على عجل هذا الانتظام العجيب المعجز. فالآيات القرآنية، كما يرون ليست مبنية، حتى في السورة الواحدة، على موضوع واحد، وإنما تتوزع عادة بين مجموعة غير قليلة من الموضوعات. فأين، إذن، هذا الانتظام؟

لا يفوت الإمام الحرالي أن يوضح، جواباً على التساؤل الآنف، ببيانه المبهر، وجه انتظام الموضوعات القرآنية إلى حد الإعجاز. حيث يرجع هذه الموضوعات إلى جوامع ثلاث، وهي "صلاح الدين والدنيا والمعاد"⁽⁵²⁾، ثم يبين وجه اختيار القرآن أن تأتي معانيه متنوعة، في وحدات دلالية كبرى، أو قل باصطلاحه في خطابات أو جوامع، متعددة. وما ذلك إلا ليكون قلب المتلقي بها أجمع، ونفسه إليها أشوق. يوضح رحمه الله ذلك فيقول: "لما كان منزل القرآن لإقامة الأمور الثلاثة التي بما قيام المخاطبين به وهو صلاح دينهم، وهو ما بين العبد وربّه، من عمل أو إلقاء بالسلم إليه؛ وإصلاح دنياهم، وهو ما فيه معاش المرء؛ وإصلاح آخرتهم، وهو ما إليه معاده؛ كان لذلك منزل القرآن مفصلاً بأحكام تلك الأمور الثلاثة، فكان شذرة للدين، وشذرة للدنيا، وشذرة للآخرة، فلما كان في صدر هذا الخطاب ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾⁽⁵³⁾ وهو خطاب للملوك، ومن تبعهم من رؤساء القبائل، ومن تبعهم، انتظم به بعد ذلك حكم من أحكام أهل العلم ومن تبعهم في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ)⁽⁵⁴⁾، ثم انتظم به ذكر أحوال الرشى من الراشي والمرتشي، ليقع نظم التنزيل ما بين أمر في الدين، ونهي في الدنيا، ليكون ذلك أجمع للقلب في قبول حكم الدنيا عقب حكم الدين، ويفهم حال المعاد من عبرة أمر الدنيا، فلذلك تعتور الآيات هذه المعاني، ويعتقب بعضها لبعض، ويتفصل بعضها لبعض، كما هو حال المرء في يومه وفي مدة عمره، حيث تعتور عليه أحوال دينه ودنياه ومعاده، يطابق الأمر الخلق في التنزيل والتطور"⁽⁵⁵⁾.

"وانتظام القرآن إنما ينتظم رأس الخطاب فيه برأس خطاب آخر يناسبه في جملة معناه، وينتظم تفصيله بتفصيله"⁽⁵⁶⁾ من ذلك ما يبينه الشيخ الحرالي عند الآية الكريمة ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾⁽⁵⁷⁾ وهي آية يعدها الحرالي من جوامع آي الفرقان، وبعد أن يفصل في تفسيرها يقول: "وهو في الحقيقة خطاب جامع لتفصيل ما يرد من النسخ في تفاصيل الأحكام والأحوال، بمنزلة الخطاب المتقدم في صدر السورة المشتمل على جامع ضرب الأمثال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا﴾⁽⁵⁸⁾، وذلك لأن هذه السورة (البقرة) هي فسطاط القرآن الجامعة لجميع ما تفصل فيه، وهي سنام القرآن، وسنام الشيء أعلاه، وهي سيدة سور القرآن، ففيها لذلك جوامع [أي: خطابات] ينتظم بعضها ببعض إثر تفصيله خلالها في سنامية معانيها، وسيادة خطابها، نحو من انتظام آي سورة الفاتحة المنتظمة من غير تفصيل وقع أثناءها، ليكون بين المحيط الجامع والابتداء الجامع مشاكلة ما"⁽⁵⁹⁾.

وعند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾⁽⁶⁰⁾ قال رحمه الله: "لما تكمل إقبال الخطاب عليهم مرات، بما تقدم من ندائهم والعطف على ما في صلته، صرف الحق وجه الخطاب عنهم إلى ذكر خطاب نبيه، صلى الله عليه وسلم، لهم، فإن الله يخاطب العباد بإسقاط الوساطة بينه وبينهم، ترفيعاً لأقدارهم لديه، فيرفع من شاء فيجيبه بما شاء، فيجعل بينه وبينهم في الخطاب واسطة من

نبيه، فلما قررههم بما مضى من التذكير على ما واجههم به الحق تعالى، ذكر في هذه الآية تقريرهم على ما خاطبهم به نبيهم، حين أعرض الحق عن خطابهم بما أصابوه من قبيح خطيئتهم" (61).

وكما تتناسق خطابات القرآن، تتناسق كذلك آياته، وذلك "لأن في كل آية معنى تنتظم به ما قبلها، ومعنى تنهياً به للانتظام بما بعدها، وبذلك كان انتظام الآي داخلاً معنى الإعجاز الذي لا يأتي الخلق بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً" (62).

وقد كان البحث في تناسب آي القرآن في تفسير الشيخ الحارلي من وسائل استجلاء المعنى وأسرار النظم القرآني، إذ كانت ملاحظة الروابط اللغوية، وترتيب النزول، والتطور الروحي للأمة، ومقارنة الآيات بعضها ببعض، تبعاً لقاعدة القرآن يفسر بعضه بعضاً، كان كل ذلك وغيره مما يستلهمه الشيخ في إبراز وجوه انتظام الآي، من ذلك أنه يبين وجه مناسبة الآية الكريمة ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (63)، والآية الكريمة التي تليها: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (64) فيبرز بفهمه الفطن وجه انتظام هاتين الآيتين في سياق واحد، والذي به يتضح المعنى أكثر، فيقول: "وقد كان من أول منزله، أي: القتال: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ (65) فكان الأول إذناً لمن شأنه المدافعة عن الدين بداعية من نفسه، من نحو ما كانت الصلاة قبل الفرض واقعة من الأولين بداعية من حبهم لربهم، ورغبتهم إليه في الخلوة به، والأنس بمناجاته، فالذين كانت صلاتهم حبا، كان الخطاب لهم إذناً... فلما اتسع أمر الدين، ودخلت الأعراب والأتباع الذين لا يحملهم صدق المحبة للقاء الله على البدار للجهاد، نزل كتبه، كما نزل فرض الصلاة استدراكاً فقال: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ)، عليكم، أي: أيتها الأمة، القتال. وكان في المعنى راجعاً لهذا الصنف الذين يسألون عن النفقة، وبمعنى ذلك انتظمت الآية بما قبلها، فكأنهم يتبدلون في الإنفاق تبليداً إسرائيلياً، ويتقاعدون عن الجهاد تقاعد أهل التيه منهم، الذين قالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ (66) (67).

خاتمة :

وأخيرا فإنني أرجو من الله تعالى أن تكون هذه القراءة قد حققت بعضا من أهدافها، والمتمثلة أساسا

في :

- ❖ نفص الغبار عن عالم موسوعي كبير لم تنصفه الشهرة، رغم مؤلفاته الكثيرة، ومشاركاته الفذة في كثير من العلوم، وعلى رأسها علوم القرآن الكريم، مع إيماني الراسخ بأن محاولة رد الاعتبار لعالم ميت من خلال تراثه، فيها إحياء للعالم نفسه ، فمن خلف علما نافعا لم يمت ولم تطو صحيفته.
- ❖ تقريب القارئ الكريم، وخصوصا الباحث المهتم، من أرض خصبة للبحث والاجتهاد ، وذلك لكون عالم الحارلي العلمي حديث الاكتشاف.
- ❖ التعرف عن كُتب على طريقة الشيخ الحارلي الراقية في الكتابة، وأسلوبه الفريد في مخاطبة القارئ، مما يبرز تمنكه الكبير من علوم العربية وعلوم الشريعة على حد سواء.
- ❖ الدخول في سلك خُدام القرآن الكريم، من خلال قراءة في كتاب مرتبط بتفسير القرآن الكريم.
- ❖ الاطلاع عن كُتب على نموذج من التفاسير الصوفية للقرآن الكريم، وقد وجدته جامعا بين الإشارة والعبارة دونما إخلال بحقوق واحدة منهما، استفاد فيه صاحبه من كثرة علومه في المنقولات والمعقولات.
- ❖ تقديم دراسة مختصرة عن المؤلف ومؤلفاته ، حتى أقرب القارئ المعاصر من حياة وعطاء عالم كبير يحق لنا أن نفخر ونتأسى به، في مجال الكد والاجتهاد وحب وتقديس العلم.
- ❖ إبراز قيمة الكتاب العلمية في الموضوع والشكل، فهو تفسير إشاري للقرآن الكريم دون تجاوز حد الشرع في استبطان المعاني وحافة اللغة في مجاز العبارات، تميز مؤلفه الحارلي رحمه الله تعالى بأسلوب عالي قلما تصادف مثله من حيث الجودة مبنى ومعنى.

الهوامش :

- (1) - ينظر : عبد الواحد بن محمد الطواح، سبك المقال لفك العقال، خ.م.ح. بالرباط ، تحت رقم : 105، ص.32.
- (2) - ينظر : ابن خلدون، المقدمة، المطبعة البهية، مصر، 1900، ص.44.
- (3) - ينظر : أبو العباس أحمد الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: 1910م، ص.ص.85-97.
- (4) - شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة : 1406هـ/1986م، ج.23، ص.47.
- (5) - نفسه.
- (6) - ينظر : محمد عبد الرؤوف المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق : محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، بيروت، دمشق، طبعة : 1410هـ/1990م.
- (7) - الغبريني، عنوان الدراية، م س، ص.18.
- (8) - ينظر : محمد بن الأبارالقضاعي، التكملة لكتاب الصلة، طبعة مجريط، إسبانيا، 1886م-1887م، ج.2، ص.687.
- (9) - المغرب/292.
- (10) - ينظر : رينهارتدوزي، تكملة المعاجم العربية، تحقيق : محمد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر، دمشق، جز1، ص.277.
- (11) - الغبريني، عنوان الدراية، م س، ص.143 وما بعدها.
- (12) - ابن الطواح، سبك المقال، م س، ص.132.
- (13) - ابن الأبار، التكملة، م س، ص.348.
- (14) - تراث أبي الحسن الحوالي، م س، ص.27.
- (15) - الغبريني، عنوان الدراية، م س، ص.143.
- (16) - ينظر : تراث أبي الحسن الحوالي المراكشي في التفسير، تقديم وتحقيق : محمادي بن عبد السلام الخياطي، سلسلة تراث أبي الحسن الحوالي 1، على نفقة أحد المحسنين، دون طبعة ودون تاريخ، ص.11.
- (17) - للتوسع في حياة الإمام الحوالي رحمه الله تعالى ينظر : محمادي بن عبد السلام الخياطي، أبو الحسن الحوالي : آثاره ومنهجه في التفسير، دار الحديث الحسنية، ومكتبة كلية أصول الدين بتطوان، ومكتبة كلية الآداب بالرباط.
- (18) - تراث أبي الحسن الحوالي، م س، ص.ص.7-8.
- (19) - تراث أبي الحسن الحوالي في التفسير، م س، ص.31.
- (20) - المصدر نفسه، ص.36.
- (21) - المصدر نفسه، ص.ص.58-59.
- (22) - المصدر السابق، ص.102.
- (23) - النحل/52.
- (24) - المعارج/23.
- (25) - تراث أبي الحسن الحوالي في التفسير، م س، ص.115.
- (26) - المصدر السابق، ص.ص.126-127.
- (27) - نفسه، ص.138.
- (28) - نفسه، ص.137.

- (29) - عُرف التفسير الإشاري بأنه: "تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف ، ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر والمراد أيضاً" فهو التفسير الصوفي الذي يلحظ إشارات في الآيات، ولا يقف عند ظاهر الألفاظ فقط، ويختلف عن التفسير الباطني الذي يفترض معنى باطنياً مقصوداً غير الظاهر، بأنه لا ينفي الظاهر بالضرورة، أو يدعي قصدية المعنى المشار إليه أصالة.
- (30) - البقرة/81.
- (31) - الحوالي، الحكم، تحقيق: د. جورج كتورة، مجلة الباحث. بيروت العدد 3، أكتوبر 1978م، ص.118.
- (32) - تراث أبي الحسن الحوالي في التفسير، م س، ص.92.
- (33) - المصدر نفسه، ص.517.
- (34) - البقرة/173.
- (35) - تراث أبي الحسن الحوالي في التفسير، م س، ص.319.
- (36) - المصدر نفسه، ص.29.
- (37) - نفسه، ص.32.
- (38) - نفسه، ص.28.
- (39) - النساء/77.
- (40) - الشاطبي، الموافقات، تحقيق عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت. د.ت، ج.3، ص.382.
- (41) - تراث أبي الحسن الحوالي في التفسير، م س، ص.31.
- (42) - آل عمران/18.
- (43) - تراث أبي الحسن الحوالي في التفسير، م س، ص.537.
- (44) - آل عمران/4.
- (45) - تراث أبي الحسن الحوالي في التفسير، م س، ص.504.
- (46) - محمد عبد الرؤوف المناوي، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، تحقيق: محمد أديب الجادر، دار صادر، بيروت، لبنان، طبعة 1999م، ج.2، ص.465.
- (47) - البقرة/88.
- (48) - الناس/6.
- (49) - يقصد حمزة أحد القراء السبعة الذي كان يقرأ القرآن من غير يسمله بين السورتين، فكان القرآن عنده كالسورة الواحدة.
- (50) - تراث أبي الحسن الحوالي في التفسير، ص.239.
- (51) - المصدر نفسه، ص.152.
- (52) - في كتاب "عروة المفتاح" يربط الحوالي هذه الجوامع الثلاثة بمحدث الأحرف السبعة، فيذكر أنه في كل صلاح إقدام وإحجام، فتصير الثلاثة الجوامع ستة مفصلات هي حروف القرآن الستة التي لم يرح النبي صلى الله عليه وسلم يستزيدها من ربه حرفاً حرفاً، فلما استوفى الستة وهبه ربه سابعاً فرداً لا زوج له، فتم إنزاله على سبعة أحرف. ينظر تفصيل ذلك في "العروة" من ص. 56 إلى ص. 117، ضمن تراثه في التفسير.
- (53) - البقرة/168.
- (54) - البقرة/174.
- (55) - تراث أبي الحسن الحوالي في التفسير، ص.361-362.
- (56) - المصدر نفسه، ص.224.
- (57) - البقرة/106.
- (58) - البقرة/26.
- (59) - تراث أبي الحسن الحوالي في التفسير، ص.250.
- (60) - البقرة/54.

(61) - تراث أبي الحسن الحارلي في التفسير، ص. 217.

(62) - المصدر نفسه، ص. 188.

(63) - البقرة/ 214.

(64) - البقرة/ 216.

(65) - الحج/ 39.

(66) - المائدة/ 24.

(67) - تراث أبي الحسن الحارلي في التفسير، ص. 386.

قائمة المصادر المراجع :

- ابن خلدون، المقدمة، المطبعة البهية، مصر، 1900م.

- أبو الحسن الحارلي، الحكم، تحقيق: د. جورج كتورة، مجلة الباحث. بيروت العدد 3، أكتوبر 1978م.

- أبو العباس أحمد الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1910م.

- الشاطبي، الموافقات، تحقيق عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت (د ت).

- رينهاردتدوزي، تكملة المعاجم العربية، تحقيق: محمد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر، دمشق (د ت).

- شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة : 1406هـ/ 1986م.

- عبد الواحد بن محمد الطواح، سبك المقال لفك العقال، خ.م.ح. بالرباط ، تحت رقم : 105.

- محمادي بن عبد السلام الخياطي، أبو الحسن الحارلي : آثاره ومنهجه في التفسير، دار الحديث الحسنية، ومكتبة كلية أصول الدين بتطوان، ومكتبة كلية الآداب بالرباط.

- محمادي بن عبد السلام الخياطي، تراث أبي الحسن الحارلي المراكشي في التفسير، تقديم وتحقيق، سلسلة تراث أبي الحسن الحارلي 1، على نفقة أحد المحسنين. (د ت).

- محمد بن الأبارالقضاعي، التكملة لكتاب الصلة، طبعة مجريط، إسبانيا، 1886م-1887م.

- محمد عبد الرؤوف المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق : محمد رضوان الدايدة، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، بيروت، دمشق، طبعة : 1410هـ/ 1990م.

- محمد عبد الرؤوف المناوي، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، تحقيق : محمد أديب الجادر، دار صادر، بيروت، لبنان، طبعة 1999م.